المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات
International Journal of Research and Studies Publishing
ISSN: 2709-7064
المجلد الرابع - الإصدار الواحد والأربعون
تأريخ النشر: 20 مارس 2023 م

جهود علماء خراسان في تحصين الأمن الفكري للمجتمع خلال العصر السلجوقي

(429 – 552هـ/1037 – 1157م)

The efforts of Khorasan scholars in fortifying the intellectual security of society during the Seljuk era (429-552 AH / 1037-1157 AD)

إعداد: الأستاذ الدكتور/ علي بن محمد فريد

أستاذ التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية

الباحث/ خالد بن عبد الله السعيد

طالب دراسات عليا، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية

Email: khalidaltamimi2030@gmail.com

الملخص:

تتجلى أهمية هذه الدراسة في أنها تُنبه القارئ إلى ضرورة العناية بالأمن الفكري؛ لأن في حمايته حفظ للعقيدة، وصيانة للهوية، وتعزيز للحمة الوطنية بين أبناء الوطن الواحد. ومما يزيد من أهميتها كذلك، أن استنطاق جهود علماء خراسان في تحصين الأمن الفكري لمجتمعهم يرمي إلى توجيه الخلف إلى كيفية التعامل مع الأفكار المنحرفة التي تستهدف خلخلة الأمن الفكري في وقتنا المعاصر. وعلاوة على ذلك، فإن في إضاءة جهود أولئك العلماء الأجلاء تذكرة لعلماء الأمة بثقل المسؤولية الملقة على عواتقهم تجاه دينهم ومجتمعهم، وهو ما يقتضي خلعهم رداء الكسل والوقوف في وجه الأفكار المنحرفة والكشف عن تهافتها.

قُسّمت الدراسة إلى ثلاثة مباحث. فأما المبحث الأول فخُصص لإعطاء تعريف بالأمن الفكري، وأهميته، ومكانته في القرآن الكريم، في حين تضمن المبحث الثاني فيتضمّن تعريفاً مختصراً ببعض أهل الأهواء والبدع وبيان أثرهم في تصدع الأمن الفكري للمجتمع الخراساني خلال العصر السلجوقي، أما المبحث الثالث فتناول جهود علماء خراسان في الحفاظ على الأمن الفكري للبلاد وحمايته من معاول هدم المُفسدين.

أظهرت الدراسة أن موضوع الأمن الفكري يُعد من الركائز المهمة في استقرار أي مجتمع إسلامي وسلامته، كشفت الدراسة عن أبرز التيارات الفكرية المنحرفة وأثرها في تصدع مجتمع خراسان فكرياً خلال العصر السلجوقي، وأهمها: الشيعة الباطنية، والمتصوفة المنحرفة، والمعتزلة، وغلاة الفلاسفة، أوضحت الدراسة أن جهود علماء خراسان خلال العصر السلجوقي في مواجهة أهل الأهواء والبدع والفكر المنحرف كانت متعددة وشملت: هجرهم وعدم مجالستهم، وتأليف الكتب في الرد عليهم وبيان تهافتهم، والدعوة إلى مناظرتهم.

كلمات مفتاحية: الأمن الفكري، خراسان، العصر السلجوقي، العلماء، أهل الأهواء والبدع

The efforts of Khorasan scholars in fortifying the intellectual security of society during the Seljuk era (429-552 AH / 1037-1157 AD)

Abstract:

The importance of this study is evident in that it alerts the reader to the need to take care of intellectual security. Because in his protection is the preservation of faith, the preservation of identity, and the strengthening of national cohesion among the people of the same country. What increases its importance as well is that the questioning of the efforts of Khorasan scholars in fortifying the intellectual security of their society aims to direct the successor to how to deal with deviant ideas that aim to disturb intellectual security in our contemporary time. Moreover, illuminating the efforts of those venerable scholars is a reminder to the nation's scholars of the weight of responsibility on their shoulders towards their religion and society, which requires them to take off the robe of laziness and stand up to deviant ideas and reveal their insignificance.

The study was divided into three sections. As for the first topic, it was devoted to giving a definition of intellectual security, its importance, and its place in the Holy Qur'an, while the second topic included a brief definition of some people of whims and heresies and an indication of their impact on the cracking of the intellectual security of Khorasani society during the Seljuk era. As for the third topic, it dealt with the efforts of Khorasan scholars in preserving Intellectual security for the country and its protection from the demolition shovels of the corrupt.

The study showed that the issue of intellectual security is one of the important pillars in the stability and safety of any Islamic society. The study revealed the most prominent deviant intellectual currents and their impact on the intellectual rift of Khorasan society during the Seljuk era. The efforts of the scholars of Khorasan during the Seljuk era in confronting the people of whims, heresies, and deviant thought were numerous and included: abandoning them and not sitting with them, writing books in response to them, explaining their incoherence, and calling for a debate with them.

Keywords: Iintellectual security, Khorasan, Seljuk era, Scholars, People of whims and heresies

1. المقدمة:

الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا، وأتمَّ علينا نعمته، ورضي لنا الإسلام ديناً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده المصطفى ورسوله المجتبى المبعوث رحمة للعالمين، فتح به أعيناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً، ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الأمن نعمة عُظمى، ومِنّة كبرى، بل هو مطلب فطري، لا يستقيم عيش المرء من دونه، ولا يتحقق إبداعه إلا في ظله، وهو كذلك ضرورة لكل أمة، فبه تسلم من الفتن والشرور والآفات، وبه يتحقق لها السلامة والاطمئنان، وتحظى بالسعادة والازدهار، وبه تنتظم المصالح وتُحفظ الأنفس، وتسلم الأعراض وتُصان الأموال، وتأمن السبل وتُقام الحدود.

والأمن له وجوه عدة، وأحد تلك الوجوه وأعظمها درجة ما يُعرف بـالأمن الفكري، والذي تتلخص غايته في حفظ العقيدة، واستقامة السلوك، وحماية الهوية، وتأصيل الولاء للأمة. ومما يدل على بعد أثر الأمن الفكري وجليل خطره؛ أنه وثيق الصلة بأنواع الأمن الأخرى، كالسياسي، والعسكري، والاجتماعي، والاقتصادي، بل إنه يُعد حجر الأساس لها، والركن الأهم في نظم بنائها.

لقد أصبح الحديث عن الأمن الفكري ضرورة لا مناص منه؛ لما يتهدد بلاد الإسلام من أفكار وأيدولوجيات وثقافات قادمة من الخارج؛ ترمي في عمومها إلى سلخ المسلمين عن هويتهم، وضربهم في ثوابتهم، وتشكيكهم في تاريخهم. وليت الأمر يقف عند تلك التهديدات الخارجية، بل إن هناك من المنتسبين لهذا الدين الحنيف، من أصحاب العقول الكليلة والقلوب العليلة، ممن قد جنّدوا أنفسهم، وسخّروا أقلامهم؛ لهدم مقدسات المسلمين، واللمز في شريعة الإسلام، والطعن في رموز الأمة التاريخية؛ يحركهم في ذلك تعصب بغيض، وفهم سقيم، وعبودية للغرب.

إن من يتأمل التاريخ الطويل للأمة الإسلامية سيجد أن المساعي المتواصلة لتقويض الأمن الفكري في الزمن الحاضر كان لها ما يشبهها في الزمن الماضي، والشواهد على ذلك كثيرة للغاية، نذكر منها ما وقع في خراسان[1] إبان الحكم السلجوقي

(1) خراسان (بضم الخاء وفتح الراء): قيل في معناها: (خُر) اسم للشمس في الفارسية، و(أسان) أصل الشيء ومكانه، وقيل: معناه كلّ سَهْلاً؛ لأن (خُر) تعني كلّ، و(أسان) تعني سهل، وقيل غير ذلك. وخراسان إقليم واسع الأكناف يحيط به من الشرق نواحي سجستان والهند، ومن الغرب مفازة غزية ونواحي جرجان، ومن الشمال بلاد ما وراء النهر وشيء من بلد الترك، ومن الجنوب مفازة فارس وقومس. وأما مدن خراسان، فأعظمها: نيسابور، ومرو، وهراة، وبلخ، وبخراسان كور دونها في الكبر، مثل: قوهستان، وطوس، ونسا، وأبيورد، وسرخس، وبوشنج، ومرو الروذ، وجوزجان، والباميان، وطخارستان. ولقد رفدت خراسان حضارة الإسلام بأكبر رجالها وغدتها بأكثر جوانبها، مثل: البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن حنبل، والحاكم النيسابوري، والجويني إمام الحرمين، والغزالي، وغيرهم من فرسان العلم وساداته ممن يفوت حصرهم ويعجز البليغ عن عدّهم. انظر مثلاً: الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626هـ/1229م)، **معجم البلدان**، تحقيق: فريد الجندي (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، 2: 401 – 405؛ الحميري، أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت 900هـ/1495م)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: مكتبة لبنان، 1974م)، 214 – 215.

(429 – 552هـ/1037 – 1157م)[1]؛ حيث تخلخلت أركان الأمن الفكري لهذا الإقليم الكبير؛ نتيجة الانقسامات المذهبية والفكرية، إلا أن الله تعالى قيّضَ لدينه رجالاً من أهل العلم وقفوا في وجه أصحاب الأفكار الفاسدة بمختلف الوسائل؛ بقصد حفظ بيضة الدين، وحماية أبناء المجتمع من الانجرار وراء تلك الفرق المارقة ومعتقداتها الباطلة، وهو ما ستتناوله هذه الدراسة المتواضعة في الصفحات التالية بمشيئة الله.

إن أهمية هذه الدراسة تتجلى في أنها تُنبه القارئ إلى ضرورة العناية بالأمن الفكري؛ لأن في حمايته حفظ للعقيدة، وصيانة للهوية، وتعزيز للحمة الوطنية بين أبناء الوطن الواحد. ومما يزيد من أهميتها كذلك، أن استنطاق جهود علماء خراسان في تحصين الأمن الفكري لمجتمعهم يرمي إلى توجيه الخلف إلى كيفية التعامل مع الأفكار المنحرفة التي تستهدف خلخلة الأمن الفكري في وقتنا المعاصر. وعلاوة على ذلك، فإن في إضاءة جهود أولئك العلماء الأجلاء تذكرة لعلماء الأمة بثقل المسؤولية الملقة على عواتقهم تجاه دينهم ومجتمعهم، وهو ما يقتضي خلعهم رداء الكسل والوقوف في وجه الأفكار المنحرفة والكشف عن تهافتها.

وتأسيساً على ما تقدم؛ فقد قُسّمت الدراسة إلى ثلاثة مباحث. فأما المبحث الأول فخُصص لإعطاء تعريف بالأمن الفكري، وأهميته، ومكانته في القرآن الكريم، في حين تضمن المبحث الثاني فيتضمّن تعريفاً مختصراً ببعض أهل الأهواء والبدع وبيان أثرهم في تصدع الأمن الفكري للمجتمع الخراساني خلال العصر السلجوقي، أما المبحث الثالث فتناول جهود علماء خراسان في الحفاظ على الأمن الفكري للبلاد وحمايته من معاول هدم المُفسدين، ثم ذُيلت هذه الدراسة بخاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: التعريف بالأمن الفكري وأهميته:

يُعد مصطلح الأمن الفكري من المصطلحات المعاصرة، التي كثر تداولها، وراج استعمالها، في العقود الأخيرة، وبخاصة بعدما أُبتلي الإسلام والمسلمون بجماعات إرهابية اتخذت الدين ستاراً لها؛ لتبرير غاياتها السياسية وأفعالها الإجرامية، ولتشويش أذهان العباد وتأليبهم على حكامهم، وللتغرير بشباب الأمة واستمالتهم إليها لخدمة مآربها الخبيثة. وكذلك كان للتطورات المتلاحقة في تقنية الاتصال والإعلام، وما نجم عنها من دخول ثقافات ومعتقدات وافدة على المجتمعات الإسلامية، ومن ثم تهديدها للهوية الدينية والقيم الاجتماعية لتلك المجتمعات؛ ما جعل من الأمن الفكري ضرورة مُلحّة يفرضها الواقع المعاش.

(1) السلاجقة: قوم أصلهم من الترك الغُزّ، كانوا يخدمون مع ملوك الترك، وتسمّوا بالسلاجقة؛ نسبة إلى جدهم سلجوق بن دقاق الذي هاجر بجماعته من تركستان إلى وادي نهر سيحون، وتحالف مع أمراء السامانيين، واتخذ من مدينة جند قاعدة له، واعتنق هو وجماعته المذهب الحنفي الذي كان عليه السامانيون. ثم نشأ أولاده من بعده في القوة والنعمة فاستولوا على كل موضع استضعفوه من بلاد العجم، وما زال أمرهم ينمى حتى ملك طغرلبك، وهو أول ملوكهم، طائفة من بلاد العجم، ودخل بغداد سنة 447هـ/1055م ومحا مُلك بني بويه وقبض على آخر ملوكها. ومن أشهر سلاطينها: طغرلبك المذكور، وألب أرسلان، وملكشاه بن ألب أرسلان، وسنجر بن ملكشاه. انظر مثلاً: ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا (ت 709هـ/1309م)، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (بيروت: دار صادر، د. ت)، 292 – 293؛ ابن خلدون، ولي الدين أبا زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت 808هـ/1332م)، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، اعتنى به وراجعه: درويش الجويدي (صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، 1434هـ/2013م)، 2: 1423 وما بعدها.

ولقد اعتنت طائفة من الباحثين والمهتمين بوضع تعريفات شتى للأمن الفكري، وهي تعريفات تختلف في ظاهرها، وتتشابه في باطنها. فهناك من لخّصَ الأمن الفكري في أن "يعيش الناس في بلدانهم وأوطانهم وبين مجتمعاتهم، آمنين مطمئنين على مكونات أصالتهم، وثقافتهم النوعية ومنظومتهم الفكرية[1]"، وذهب البعض إلى تعريف الأمن الفكري بأنه "حماية عقول أفراد المجتمع من كل فكر شائب ومعتقد خاطئ يتعارض مع العقيدة والمبادئ التي يدين بها المجتمع، وبذل الجهود من كل مؤسسات المجتمع من أجل تحقيق هذه الحماية[2]"، وفصّل باحث آخر تعريفه للأمن الفكري، فقال: "التزام، واعتدال، ووسطية، وشعور بالانتماء، إلى ثقافة الأمة وقيمها، فضلاً عن أنه يعني فيما يعني إليه، حماية عقل الإنسان وفكره، ورأيه في إطار الثوابت الأساسية، والمقاصد المعتبرة، والحقوق المشروعة المنبثقة من الإسلام عقيدة وشريعة حياة [3]". وكما ترى، فإن هذه التعريفات المذكورة أعلاه، وغيرها ممن لم نذكرها، تتفق على تحصين فكر الفرد وحمايته من الانسياق وراء الأفكار الشائبة والمعتقدات الباطلة؛ وذلك من أجل المحافظة على استقرار المجتمع وطمأنينته.

وأما ما يتعلق بأهمية الأمن الفكري؛ فإنه ضرورة لا غنى عنه لأي فرد ومجتمع، ونعمة لا تُقدر ولا تُقوم بثمن، بل إنه يأتي على رأس الأولويات وأسمى الغايات؛ فبواسطته يتحقق الأمان في مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكل ما يتصل بنهوض الأمة وارتقائها في مدارج الحضارة. فالأمن الفكري مداره العقل، والعقل هو آلة الفكر، وأساس البناء، ومناط القيادة العليا الواعية لدى الإنسان، والجهة القيادية المسؤولة عن وجوه الأمن الأخرى في أي مجتمع، فإذا صلحت هذه القيادة صلح المجتمع، وإذا فسدت هذه القيادة فسد المجتمع.

وعلاوة على ما تقدم، فإن وجود الأمن الفكري كفيل بحفظ دين هذه الأمة، وصيانة ثوابتها المستمدة من كتاب الله وسنّة نبيه، وحماية أبناء المجتمع من التردي في شرك الأفكار الهدّامة والتيارات المنحرفة. وأما إذا حصل ما يتسبب باختلال الأمن الفكري، فإن الأمة سرعان ما يختل توازنها، وتضعف مناعتها، وبذلك تفقد مصدر عزها وفخارها، وأساس ذكرها وعلوها[4].

وتتجلى أهمية الأمن الفكري أيضاً في تحقيقه للاستقرار وتعزيزه للوحدة والتلاحم بين أبناء الأمة الواحدة في الفكر والسلوك والغاية. أما المجتمع الذي يفتقد إلى وجود مثل هذا النوع من الأمن؛ فإنه بلا شك سوف يعاني من افتراق الكلمة، واختلاف القلوب، وانقسام الصفوف، وربما أفضى هذا الخلاف العقدي إلى إشاعة الفتن واستحلال الدماء.

ولا ينبغي أن يُفهم مما مضى أن الأمن الفكري يعني التقوقع والانكفاء على الذات، والامتناع السلبي عن التفاعل مع المخالف وسد الأبواب في وجهه. وبالمثل، فإن سعي أي مجتمع لإشاعة الأمن لا يقتضي بالضرورة ممارسة الاستبداد الفكري، وقولبة العقول بالقوة، ومصادرة الرأي الآخر وقمعه.

---

(1) السديس، عبد الرحمن عبد العزيز، **الأمن الفكري وأثر الشريعة الإسلامية في تعزيزه** (الرياض: مدار الوطن للنشر، 1438هـ/2016م)، 29.

(2) نور، أمل محمد، **مفهوم الأمن الفكري في الإسلام وتطبيقاته التربوية**، (رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، 1428هـ)، 48.

(3) الجحني، علي فايز، "رؤية للأمن الفكري وسبل مواجهة الفكر المنحرف"، **المجلة العربية للدراسات الأمنية**، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، مج. 14، ع. 27 (مايو، 1999م): 250 – 251.

(4) جرمك، آمنة حامد، "مفهوم الأمن الفكري ومعالمه وسماته في القرآن الكريم"، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج. 4، ع. 4 (15 ديسمبر، 2021م): 159 – 160.

ولو قلّب المرء صفحات تاريخ أمة الإسلام فلن يُرهق في العثور على شواهد تنبو عن الحصر لعلماء أجلاء قاموا بمناظرة المخالفين وتأليف الكتب في الرد عليهم؛ للكشف عن عوار منهجهم، وفساد رأيهم، وتهافت حججهم. وما لجوء الحكام، ومن ورائهم العلماء، إلى السيف لتأديب المخالفين، كالباطنية الإسماعيلية؛ إلا نتيجة لما جرى على أيدي هذه الفرقة المارقة من إفساد في البلاد وترويع للعباد.

ونظراً إلى أهمية الأمن الفكري في حياة المسلمين، فقد حمل القرآن الكريم بين دفتيه إشارات له رسمت معالمه وكشفت عن سماته. ويعد الإيمان بالله هو بوابة الأمن الفكري[1]، كما أخبرنا بذلك الله تعالى: {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ[2]}، فالإيمان والأمن كلمتان تدلان على الراحة والسكينة والشعور بالسعادة والطمأنينة والبعد عن الحزن والخوف[3]؛ لذا نجده سبحانه وتعالى يقول في كتابه المجيد: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ[4]}.

وإذا كان الإيمان بالله هو بوابة الأمن الفكري، فإن التمسك بكتاب الله وسنّة نبيه هو القاعدة التي يرتكز عليها، وفي هذا الشأن يقول الله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا[5]}، فأمن الأفكار مرتبط –كما جاء في الآية الكريمة – بوحدة مصدر التلقي، أي: القرآن الكريم والسنّة المطهرة[6].

ولا مكان للأمن الفكري دون التزود بالعلوم الشرعية النافعة؛ فالعلم يرشد المسلم إلى سلوك الطريق القويم المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا زيغ، فلا يقع صاحبه في المحرمات المهلكات التي تخل بالأمن الفكري إخلالاً عظيماً. لذا؛ فقد أشاد القرآن الكريم بفضل العلم، وعظيم نفعه، وشرف مكانة طالبه، في مواضع كثيرة للغاية، فمن أمثلة ذلك: قول الحق تبارك: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ[7]}.

ومما يديم نعمة الأمن الفكري ويحفظ لنا استقراره أن يلتزم المرء جانب الوسطية والاعتدال، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، بل اعتدال في كافة الأمور[8]،

(1) جرمك، مفهوم الأمن الفكري ومعالمه، 161.
(2) سورة النور، الآية (55).
(3) السديس، **الأمن الفكري في الشريعة**، 43.
(4) سورة الأنعام، الآية (82).
(5) سورة الأحزاب، الآية (36).
(6) جرمك، الأمن الفكري ومعالمه، 163 – 164.
(7) سورة الزمر، الآية (9).
(8) نور، **مفهوم الأمن الفكري في الإسلام وتطبيقاته**، 99 – 111؛ السديس، **الأمن الفكري في الشريعة**، 51 – 52.

وفي هذا يقول الله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا[1]}. إن انتهاج الوسطية في الدين جدير بحفظ الأمن الفكري وسلامته من تفشي الأهواء[2] والبدع[3]، ألا ترى أن الخوارج وغيرهم من أتباع الفرق الأخرى حين تنكبوا طريق الوسطية فإنهم قد ضلوا وأضلوا كثيراً من الناس، وهذا ما تسبّب باختلال الأمن الفكري في بلاد الإسلام ونشوب الفتن فيه؟

المبحث الثاني: أهل الأهواء والبدع في خراسان وأثرهم في تصدع الأمن الفكري خلال العصر السلجوقي:

شهدت خراسان عدة طوائف من أصحاب الأهواء والبدع، وكان أشد هؤلاء سطوة على الدين وأهله في العصر السلجوقي: الباطنية، والمتكلمة، والمتصوفة، والفلاسفة. ومما يدل على خطر تلك الجماعات، وعظيم أثرها في عقول الناس، أي: ما اصطلحنا على تسميته بالأمن الفكري، أن الإمام أبا حامد الغزالي (ت 505هـ/1111م)[4] – أحد جهابذة العلماء في العصر السلجوقي – قد خصّهم بفائق عنايته، فانكبَّ يغوص في بطون كتبهم، ويسبر أغوار مذاهبهم، ويتفحص عن عقائدهم، حتى وقف على حقيقة أحوالهم، وتكشفت له كل أسرارهم، ثم أقبل يكتب عنهم ويحذّر منهم، لا عن تقليد أو تعصب عليهم، وإنما عن علم ودراية بهم. يقول الغزالي في مقدمة كتابه "المنقذ من الضلال": "... وأتفحص عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة؛ لأميّزَ بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيا إلا أقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلما إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته،

(1) سورة البقرة، الآية (143).

(2) الأهواء: من الهوى، وهو خلاف الهدى، أي: ميل النفس إلى ما تحبه، ويكون ذلك في الشهوات والعقائد، واتباع الهوى في العقائد أشد وأنكى من اتباع الهوى في الشهوات. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحرّاني (ت 728هـ/1328م)، **الاستقامة**، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط 2 (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، 1411هـ/1991م)، 2: 221 – 226.

(3) عرّف الإمام الشاطبي البدعة بأنها: "**طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشريعة، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه**". الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي (ت 790هـ/1388م)، **الاعتصام**، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان (القاهرة: مكتبة التوحيد، 1425هـ)، 1: 43.

(4) أبو حامد محمد الغزالي: زين الدين، حجة الإسلام؛ محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، الشافعي، تلمذ لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني، ثم ولّاه نظام الملك التدريس في نظامية بغداد، وكان مجلسه محط رحال العلماء، ومقصد الأئمة والفصحاء. ناظر الفحول، وناطح الكبار، وظهر عليهم ظهوراً أطار ذكره، وأعلى منزلته. وللغزالي تصانيف أطبقت الآفاق شهرة، منها: "إحياء علوم الدين"، "الوسيط"، "البسيط"، "تهافت الفلاسفة"، وغيرها من التصانيف الجمة عظيمة الفوائد. توفي بطوس سنة 505هـ/1111م، وكان له من العمر خمسة وخمسون عاماً. انظر ترجمته في: الذهبي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (748هـ/1348م)، **تاريخ الإسلام ومشاهير الوفيات والأعلام**، تحقيق: بشار عواد معروف (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1424هـ/2003م)، 11: 62 – 71؛ ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد العكري (ت 1089هـ/1678م)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق: محمود الأرناؤوط (دمشق: دار ابن كثير، 1414هـ/1993هـ)، 6: 18 – 22.

ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته..[1]". وفيما يلي نبذة عن تلك الفرق والاتجاهات الفكرية التي ظهرت في خراسان في العصر السلجوقي:

الباطنية:

ينتمي الباطنية إلى الشيعة الإسماعيلية[2]، وهم من أشهر طوائف الشيعة صيتاً، وأشدهم خطراً، وأنكاهم جرحاً. وعلى الرغم من أن تاريخ تلك الفرقة الشيعية سابق لظهور السلاجقة على مسرح الحياة السياسية؛ فإن خطرها إزداد فتكاً عقب استيلاء الحسن الصبّاح (ت 518هـ/1124م)[3] على قلعة ألموت[4]، وتأسيسه لفرقة النزاريين أو الحشاشين[5]، والتي تعتبر إحدى فرق الشيعة الإسماعيلية. وعلى الرغم من جهود السلاجقة العسكرية في تتبع الحشاشين وقتلهم أينما كانوا؛ فإن شوكتهم لم تنكسر وخطرهم لم ينحسر، ولقد ظلت هذه الفرقة مصدر تهديد سافر للخلافة العباسية وللدولة السلجوقية لاجترائها على الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء، وقتلهم بخناجر فدائييها الذين أتوا بالعجب العجاب[6].

---

(1) الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت 505هـ/1111م)، **المنقذ من الضلال**، تحقيق: محمود بيجو، ط 2 (دمشق: دار التقوى، د.ت)، 30.

(2) الإسماعيلية: نسبة إلى إمامهم إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر (أكبر أبناء الصادق سادس الأئمة الاثني عشرية). ولقد تشعبت الإسماعيلية عن حركة التشيع الإمامي أو الجعفري منذ سنة 148هـ/765م، ومن ألقاب الإسماعيلية أيضاً: الباطنية، والقرامطة، والسبعية، والملاحدة، والتعليمية. لتفاصيل أوفى، انظر مثلاً: الشهرستاني، تاج الدين أبا الفتح محمد بن عبدالكريم (ت 548هـ/1153م)، **الملل والنحل**، تحقيق: محمد عبدالقادر الفاضلي (صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، 1435هـ/2014م)، 1: 155 – 162، رستم، سعد، **الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات**، ط 8 (دمشق: دار الأوائل، 2010م)، 281 وما بعدها.

(3) الحسن الصبّاح: من أهل الري، ورد مصر في خلافة المستنصر العبيدي (427 - 487هـ/1035 - 1094م)، وانضم إلى شيعة ولد الخليفة نزار بن المستنصر، ثم عاد إلى إيران، واستولى على قلعة ألموت الحصينة وجعلها مركز دعوته ومقر إقامته، ثم أضاف إليها مجموعة من القلاع، واستطار شره وغلظ أمره، وطالت مدته. وكان يُقال لأتباعه: النزاريون أو الحشاشون، أو الفدائيون. وكان الحسن الصبّاح من دهاة العالم وشجعانهم وشياطينهم، وكانت وفاته في سنة 518هـ/1124م. انظر مثلاً: إقبال، عباس، **تاريخ إيران بعد الإسلام: من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (205هـ/820م - 1343هـ/1925م)**، ترجمة: محمد علاء الدين منصور (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1410هـ/1990م)، 256 – 257.

(4) قلعة ألموت: قلعة حصينة على جبل شاهق في المناطق الشمالية الغربية من إيران بالقرب من بحر قزوين. وتعني ألموت بالفارسية: عش النسر. ولقد ظلت هذه القلعة قائمة إلى أن أحاط بها المغول بقيادة زعيمهم هولاكو وهدموها سنة 654هـ/1256م. انظر مثلاً: عمو، سميرة، **آل مُوت أو إيدلوجيا الإرهاب الفدائي**، ط 2 (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1996م)، 50 – 51.

(5) الحشاشين: أو الحشيشية، أو النزاريين، أو الفدائيين، أو الملاحدة: وهم يمثلون إحدى انشقاقات الإسماعيلية، وأتباع هذه الفرقة يقولون بإمامة نزار أكبر أبناء الخليفة العبيدي المستنصر بالله (ت 487هـ/1094م)، والذي لم يلِ الخلافة، وإنما تولاها أخوه الأصغر المستعلي بالله. انظر مثلاً: بدوي، عبدالمجيد أبو الفتوح، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد**، ط 2 (المنصورة: دار الوفاء، 1408هـ/1988م)، 127 – 128.

(6) للوقوف على بعض ضحايا خناجر الحشاشين الباطنية، انظر مثلاً: الحسن، حمزة السر محمد، "إرهاب طائفة الحشاشين الإسماعيلية"، **مجلة العلوم والدراسات الإنسانية**، جامعة بنغازي، ع. 47 (يناير 2018م): 8 – 16؛ بدوي، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي**، 136 – 144.

والباطنية ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض؛ أي: أنهم يتظاهرون بالتشيع لعلي بن أبي طالب ونسله، ولكن باطن معتقدهم هو الكفر الصريح، وهذا ما حدا بأحد علماء الإسلام إلى القول بأن: "ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مضرّة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان...[1]". وأما سبب تلقيبهم بالباطنية؛ فهذا لزعمهم بأن لظواهر القرآن بواطن تجري من الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورتها توهم الجهّال صوراً جلية، وهي عند العقلاء إشارات إلى حقائق خفية[2]. لذا؛ فقد قاموا بتأويل آيات القرآن الكريم تأويلات غريبة، وجعلوا هذه التأويلات هي علم الباطن، وهو يرومون بهذه الوسيلة هدم النصوص التي بُني عليها الإسلام[3]. فمن الأمثلة على تأويلاتهم للنصوص وعبثهم بها: أنهم أولوا الصلاة بمعنى موالاة إمامهم، وجعلوا الحج بمعنى زيارته وإدمان خدمته، وفسّروا الصوم بأنه الإمساك عن إفشاء سر الإمام، وأما الزنا فهو عندهم إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق[4]، وغير ذلك من تأويلات عجيبة ما أنزل الله بها من سلطان.

وهكذا كما ترى، فقد غمس هؤلاء الباطنية ضلالاتهم في الدم، ونصروا باطلهم بالقتل. ولذا؛ فقد أحسن البنداري حين وصف حال الناس بعد أن اضطرم شر هؤلاء الباطنية وعظم خطرهم، فقال: "فصار الناس فيهم فريقين: فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة، ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة؛ فمن عاداهم خاف من فتكهم، ومن سالمهم نسب إلى شركهم **في** شركهم. وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين، فأول ما بدؤوا بقتل نظام الملك[5]، ثم اتسع الخرق وتفاقم الفتق. ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم، ودبَّ إلى البري السقم، وتوفرت على التوقي الهمم...[6]".

(1) البغدادي، أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر بن محمد (ت 429هـ/1037م)، **الفرق بين الفرق**، دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشت (القاهرة: مكتبة ابن سينا، 1988م)، 282.

(2) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ/1201م)، **تلبيس إبليس**، تحقيق: محمد عبدالقادر الفاضلي (صيدا – بيروت: لمكتبة العصرية، 1435هـ/2014م)، 98.

(3) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، 282 وما بعدها.

(4) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، 296.

(5) نظام الملك الطوسي: أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق، من طوس بخراسان، وزير حازم عالي الهمة غزير الجود، خدم السلطان ألب أرسلان عشر سنين، ثم خدم ولده السلطان ملكشاه عشرين سنة. وكان الوزير نظام الملك عالماً، ديّناً، خيّراً، جواداً، عادلاً، حليماً، أمر ببناء المدارس النظامية في مختلف الأمصار، وأجرى لها الجرايات العظام، وأملى الحديث بالبلاد. قُتل نظام الملك في رمضان من سنة 485هـ/1092م، اغتاله شاب باطني في زي صوفي مستغيث بسكين كانت معه، وكان ذلك في موضع بين أصبهان وهمذان. انظر مثلاً: ابن الأثير، عز الدين أبا الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت 630هـ/1233م)، **الكامل في التاريخ**، حققه واعتنى به: عمر عبدالسلام تدمري (بيروت: دار الكتب العلمية، 2012م)، 8: 354 – 359؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ترجمة رقم (140)، 10: 541 – 544؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله (ت 764هـ/1363م)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ/2000م)، ترجمة رقم (3361)، 12: 77 – 79.

(6) البنداري، الفتح بن علي الأصفهاني (643هـ/1245م)، **تاريخ دولة آل سلجوق** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، 1318هـ/1900م)، 63.

ومما يدلك على تغلغل هذه الفرقة المارقة في البلاد، واستمالتها كثير من العباد، ما ذكره ابن الأثير في تاريخه من أن السلطان السلجوقي سنجر بن ملكشاه (511 – 552هـ/1117 – 1157م[1] لما رأى شر هؤلاء قد استطار في مدينة بيهق[2] وغيرها من أعمال خراسان؛ أنفذ إليهم عساكره، فقتلوا من ظفروا به منهم، ونهبوا أموالهم، وسبوا حريمهم[3].

الصوفية المنحرفة:

راج في خراسان إبان العصر السلجوقي سوق التصوف[4]، ويعد التصوف بمنزلة المصب الذي تجمعت فيه روافد الفكر؛ إذ اجتذب إليه أصحاب المذاهب المختلفة من سنّة وشيعة وغيرهم لنزعته الروحية، والتي لا تختص بها فرقة مذهبية دون غيرها[5]. ولقد أرجع الدكتور عبد النعيم حسنين أسباب نمو التصوف وانتشاره إلى ثلاثة أسباب،

(1) سنجر بن ملكشاه: معز الدين، أبو الحارث، سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان. سكن سنجر خراسان، واتخذ من مرو عاصمة له، وخُوطب سنجر بالسلطان، واستقام أمره، وأطاعته السلاطين، وخُطب له على أكثر منابر الإسلام، ودام سلطاناً نحو أربعين عاماً. وكان مهيباً، وقوراً، كريماً، حيياً، شفوقاً، ناصحاً، كثير الصفح، وكانت البلاد آمنة في زمانه. توفي سنجر سنة 552هـ/1157م، وكان عمره حين مات ثلاثاً وسبعين سنة، ودُفن في قبة بناها لنفسه بمرو وسماها دار الآخرة. انظر: ابن الجوزي، جمال الدين أبا الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ/1201م)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط 2 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995م)، 18: 121؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ترجمة رقم (5207)، 15: 286 – 287.

(2) بيهق: بالفتح، ناحية كبيرة وكورة واسعة، كثيرة البلدان مشتبكة العمارة، من نواحي نيسابور، وتشتمل بيهق على أكثر من ثلاثمئة قرية. كانت قصبتها خسروجرد، ثم صارت سابزوار. وقد أخرجت هذه الكورة ما لا يُحصى من العلماء والفقهاء والفضلاء والأدباء، ومع ذلك فالغالب على أهلها مذهب الرفض. ومن أشهر أئمتهم: الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، صاحب التصانيف المشهورة، ومنها: "السنن"، و"دلائل النبوة"، و"مناقب الشافعي". انظر: ياقوت، **معجم البلدان**، 1: 638 – 639.

(3) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 8: 702 – 703.

(4) التصوف: عرّف ابن خلدون التصوف بأنه: "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة". ابن خلدون، **العبر**، 1: 275. وأما ما يخص كلمة التصوف واشتقاقها، فقد اختلف فيه الباحثون وحتى الصوفية أنفسهم، ومازالوا فيه مختلفين إلى يومنا هذا، فمنهم من ينسبها إلى صفاء أرواحهم وضياء قلوبهم، ومنهم من ينسبهم إلى أهل الصفة وهم جماعة من المهاجرين الفقراء الذين كانوا ينزلون في مكان خلف حجرات النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم من ربط بين الكلمة والتحلي بالصفات الحميدة وترك الصفات الذميمة، ومنهم من نسبها إلى "سوفيا" وهي كلمة يونانية تعني الحكمة، ومنهم من ربط بينها وبين لبسهم للصوف، وغير ذلك من تفسيرات كثيرة يتعذر بسطها في هذا الموضع. انظر مثلاً: ظهير، إحسان إلهي، **التصوف: المنشأ والمصادر** (لاهور: إدارة ترجمان السنّة، 1406هـ/1986م)، 20 وما بعدها.

(5) بدوي، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي**، 52.

وهي: كثرة الحروب في أثناء الحكم السلجوقي، وفشو التعصب واضطرام النزاع بين أصحاب المذاهب الدينية، والتدهور العام في أخلاقيات الناس[1]. ويُضاف إلى ذلك ما كان يسبغه سلاطين السلاجقة على المتصوفة من صنوف العطف والإكرام[2].

وبمرور الوقت، أخذ التصوف يخرج عن سموه الأخلاقي وسياقه الروحاني؛ حيث عبث به دخلاء مخربون، عملوا على إفساد معالمه وحرف مقاصده. ففي القرون الأولى من الإسلام كان التصوف انقطاعاً إلى عبادة الله، وتخففاً من علائق الدنيا وعدم التكالب على متاعها، ثم أخذت أمشاجاً من الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية والنصرانية تدنو منه وتمتزج به، حتى صار مرتعاً للبدعة والخرافة، ومستقراً لكل فرقة وضلالة[3].

ولقد كتب الإمام أبو القاسم القشيري (ت 465هـ/1074م)[4] رسالة شهيرة تُدعى بـــ "الرسالة القشيرية" شكا فيها ما آل إليه التصوف من فساد العقيدة وتشوه الطريقة، ودعا فيها معاصريه من أهل التصوف إلى تقويم إعوجاج مذهبهم، وتنقيته مما اعتراه من أوشاب وأكدار، وإعادة ربطه بشريعة الإسلام، بعد أن تخلى غلاتهم عن العبادات الظاهرة، وأسقطوا أوامر الشرع ونواهيه[5]. وهال الإمام ابن الجوزي (ت 597هـ/1201م) كثرة وقوع المتصوفة في الباطل من القول والمنحرف من السلوك، فكتب نحو مئتي صفحة من كتابه "تلبيس إبليس" ينعي على المتصوفة التواكل وعدم أخذهم بالأسباب، وتركهم للنكاح وطلب الأولاد، ودخولهم الفلاة بغير زاد، وامتناعهم عن التداوي، وعزوفهم عن طلب العلم، وهجرهم للجمع والجماعات، وما شاكل ذلك من أمور لا يتسع المقام للإطناب بها[6].

واختلط الفكر الصوفي المنحرف في خراسان وغيرها من البلدان بأفكار بعض الفرق الغالية، كالشيعة الباطنية، فشاع بينهم التفرقة بين الشريعة والحقيقة، وسمّوا أنفسهم أرباب الحقائق وأهل الباطن، وسمّوا غيرهم أهل الظاهر والرسوم[7]، وقالوا: "العلوم ثلاثة: ظاهر، وباطن، وباطن الباطن، كما أن الإنسان له ظاهر، وباطن، وباطن الباطن.

---

(1) حسنين، عبدالنعيم محمد، **دولة السلاجقة** (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1975م)، 160.

(2) انظر مثلاً إلى ما ذكره أبو سعد السمعاني في ترجمته لبعض شيوخ المتصوفة: السمعاني، أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت 562هـ/1166م)، **المنتخب من معجم شيوخ الإمام الحافظ أبي سعد السمعاني**، تحقيق: موفق عبد الله عبد القادر (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1417هـ/1996م)، ترجمة رقم (991)، 3: 1457 – 1458؛ ترجمة رقم (1094)، 3: 1582 – 1584.

(3) ظهير، **التصوف**، 49 وما بعدها.

(4) الإمام أبو القاسم القشيري: زين الإسلام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك. رأس الأشاعرة، وإمام الأئمة، وأحد مشاهير الدنيا بالفضل والعلم والزهد. كان فقيهاً، بارعاً، محققاً متكلماً، سنّياً محدثاً، حافظاً، مفسراً، نحوياً لغوياً، أديباً شاعراً، شجاعاً بطلاً، مليح الخط، حسن الوعظ، معظماً جداً عند أهل خراسان. وله مصنفات كثيرة ومفيدة، منها: "لطائف الإشارات"، و"الجواهر"، و"التفسير الكبير"، و"أحكام السماع"، وغيرها من كتب في الفقه والتذكير والتصوف. توفي سنة 465هـ/1074م، ودُفن إلى جانب شيخه أبي علي الدقاق. انظر مثلاً: ابن الجوزي، **المنتظم**، 16: 148؛ السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبدالكافي (ت 771هـ/1370م)، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د. ت)، ترجمة رقم (471)، 5: 153 وما بعدها.

(5) بدوي، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي**، 57 – 58.

(6) ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**، 156 وما بعدها.

(7) ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**، 310 – 311.

فعلم الشريعة ظاهر، وعلم الطريقة باطن، وعلم الحقيقة بطن الباطن[1]". ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد، بل إن الصوفية ركبت طريق التشيع حذو القدة بالقدة، فأخذت عنه معظم ما في المذهب من المعتقدات، كتفضيل الولي على النبي، ووجوب معرفة الإمام وعصمته، والتقية، وتعظيم الأضرحة والاستغاثة بها، وغير ذلك من أوجه التشابه بين المذهبين، والتي مازالت قائمة وراسخة حتى وقتنا الحاضر[2].

صفوة القول: أفضى الغلو في التصوف إلى انحراف عقيدة المتصوفة، وزيغهم عن الحق، ومخالفتهم للهدي النبوي، وميلهم إلى الكسل، وقعودهم عن العمل، وتعطيلهم للعقل، وإهمالهم للعلم، وتركهم للجهاد، وغير ذلك من الطوام التي وقع في حبائلها من غلا في التصوف.

المعتزلة:

كانت فرقة المعتزلة[3] هي الغالبة على علم الكلام وأهله، فالكلام بدأ منهم، ونشأ فيهم، ولهم السلف فيه، ولهم الكتب المصنّفة، والأئمة المشهورة، ولهم الرد على أعداء الإسلام وإفحامهم بالأسلوب الذي يفهمونه، والسلاح الذي يعرفونه، القائم على استعمال الحجج العقلية والبراهين المنطقية[4]، ولكن هذه الطريقة أفضت بهم إلى مخالفة عقيدة أهل السنّة والجماعة؛ نتيجة غلوهم في العقل وإهدارهم لأدلة الشرع إلا ما طابق أهواءهم ووافق تأويلاتهم.

فإذا كان يُحسب للمتكلمة – وعلى رأسهم المعتزلة – حسن البلاء وعظيم الجهاد في المنافحة عن دين الله، إلا أنه قد عِيب عليهم إسرافهم في تنصيب العقل على رأس الأدلة والركون إليه في النظر إلى الدين والحكم عليه، وهذا ما دفع الإمام أبا حامد الغزالي إلى القول: "... فلقد قام طائفة منهم [المتكلمة] بما ندبهم الله تعالى إليه، فأحسنوا الذب عن السنّة، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة، ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم...[5]".

---

(1) ابن عجيبة، أحمد بن محمد الحسني (ت 1226هـ/1809م)، **الفتوحات الإلهية**، تحقيق: عبد الرحمن حسن محمود (القاهرة: عالم الفكر، د. ت)، 333. ولمزيد من التفاصيل، انظر: ظهير، **التصوف**، 243 وما بعدها.

(2) ظهير، **التصوف**، 188 وما بعدها.

(3) المعتزلة: نشأت فرقة المعتزلة في أواخر العصر الأموي، واشتدَّ عودها وقويت شوكتها في العصر العباسي. واختلفوا في سبب تسميتهم بذلك، فقيل: إن واصل بن عطا اختلف مع شيخه الحسن البصري في الحكم على صاحب الكبيرة، فاعتزله وتبعته جماعة، فسُمّي هو وأتباعه معتزلة، وقيل: إن الاعتزال أقدم من ذلك، فالمعتزلة هم من لم يشهروا سيوفهم في معركتي الجمل وصفين؛ لأنهم لم يستبينوا أي الفريقين على الحق. والمعتزلة هم من أشهر الفرق الكلامية، وربما قيل لهم: القدرية، أو العدلية، أو أهل العدل والتوحيد، أو الوعيدية، أو المعطلة، أو الجهمية. ويقوم الاعتزال على خمسة أصول: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولقد افترقت المعتزلة فيما بينها إلى عشرين فرقة كل فرقة منها تكفر سائرها. للمزيد، انظر مثلاً: البغدادي، **الفرق بين الفرق**، 114 وما بعدها؛ الشهرستاني، **الملل والنحل**، 1: 38 وما بعدها؛ رستم، **الفرق والمذاهب الإسلامية**، 88 – 99.

(4) صادق، حسن، **جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات**، ط 2 (القاهرة: مكتبة مدبولي، 2002م)، 171.

(5) الغزالي، **المنقذ من الضلال**، 39.

والمعتزلة شديدو الاعتداد بالعقل في البحث عن علل الأشياء وكنهها، فتراهم يعتمدون عقولهم في الحكم بحسن الأشياء وقبحها. والمعتزلة بذلك يقدمون العقل وبراهينه على النقل وأسانيده؛ فلا عبرة عندهم برواة الأحاديث ورجالات السند مهما أُحيط بهم من التعظيم والإجلال[1]. ولا ينبغي الظن بأن انتصار المعتزلة للعقل يقتضي بالضرورة أن الإسلام يقف من العقل موقف الضد؛ فالإسلام – كما هو معلوم – يدعو العباد إلى إعمال التفكير في خلق السماوات والأرض، ويشجع على طلب العلم وكسبه، ويثني خيراً على العلماء ويرفعهم إلى منزلة علية، وهذا ما أغرى شيخ الإسلام ابن تيمية إلى كتابة سِفره النفيس والشهير "درء تعارض العقل والنقل"؛ حيث فنّدَ فيه آراء المعتزلة وغيرهم من المتكلمة والفلاسفة، وبيّنَ أن صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفاً لصحيح النقل[2].

ونظراً إلى توقير المعتزلة الزائد للعقل؛ فإنه قد وقعت منهم مخالفات جسيمة وتجاوزات عظيمة، فأنكروا الصفات الإلهية الأزلية، وزعموا أنه ليس لله عز وجل علم، ولا قدرة، ولا حياة، ولا سمع، ولا بصر، وقالوا باستحالة رؤية الله يوم القيامة بالأبصار، وزعموا أن الناس هم الذين يقدرون على إكسابهم وأنه ليس لله في إكسابهم ولا في أعمال سائر الحيوانات صنع وتقدير[3].

وطعنت المعتزلة في أكابر الصحابة ممن ناشبوا علي بن أبي طالب (ت 40هـ/661م) القتال، كمعاوية بن أبي سفيان (60هـ/680م) وعمرو بن العاص (ت 43هـ/664م)، بل منهم من صرّح بتفسيقهم، ومنهم من زاد على ذلك فكفّرهم، وبسط بعضهم لسانه في جملة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وشنّع عليهم[4]. فهذا إبراهيم بن سيّار النظّام (ت 231هـ/845م)[5] – أحد رؤوس المعتزلة وإمام إحدى طوائفهم – كان فيه ميل إلى الرفض، وكان يقع في عمر بن الخطاب (ت 23هـ/644م)، ونسب إليه أموراً شنيعة، منها: ضربه بطن فاطمة (ت 11هـ/632م) حتى ألقت جنينها المحسن، واتهم أبا هريرة (ت نحو 57هـ/677م) بأنه أكذب الناس، وطعن في غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين[6]، نسأل الله العفو والعافية.

ترك المعتزلة أثاراً بالغة في المجتمع الخراساني؛ إذ وُجد فيها من يؤمن بها وينافح عنها من أولئك الذين يضعون العقل فوق النقل، ويروجون لبدعتهم، فيجدون من يميل إليهم، ومن يعترض عليهم، ثم لا يلبث أن تفترق الكلمة وتستفحل العداوة

---

(1) صادق، **جذور الفتنة**، 164.

(2) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحرّاني (ت 728هـ/1328م)، **درء تعارض العقل والنقل**، تحقيق: محمد رشاد سالم (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1411هـ/1991م)، 4: 1 وما بعدها.

(3) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، 114 – 116.

(4) انظر مثلاً: البغدادي، **الفرق بين الفرق**، 119 – 121؛ الشهرستاني، **الملل والنحل**، 1: 43، 50 – 51.

(5) إبراهيم بن سيّار النظّام: قيل: سُمّيَ بذلك؛ لحسن كلامه نظماً ونثراً، وقيل: إنما سُمّيَ بذلك لنظمه الخرز. صاحب النظّام أتباع الثنوية وملاحدة الفلاسفة في حداثته وكهولته، وخلط كلامهم بكلام المعتزلة، ووافق المعتزلة في مسائلهم وانفرد عنهم بمسائل أُخر. زعمت جماعة من العلماء أنه كان منكراً للنبوة، ولكنه خاف السيف إن هو أظهر ذلك. ولقد كفّره أكثر علماء الإسلام، بل إنه لم يسلم من تكفير بعض المعتزلة له وتأليفهم الكتب في تكفيره. انظر ترجمته في: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ترجمة رقم (91)، 6: 12 – 16.

(6) انظر مثلاً: البغدادي، **الفرق بين الفرق**، 147 – 150؛ الشهرستاني، **الملل والنحل**، 50 – 51.

بين أبناء المجتمع، وهذا ما دأب على فعله اليوم المعتزلة المعاصرة، أو من يُقال لهم: التنويريون أو العقلانيون، من استفزاز لعامة المجتمع بما يثيرونه من التشكيك في الثوابت الدينية والطعن في الرموز التاريخية.

غلاة الفلاسفة:

قوبلت الفلسفة[1] بمعارضة شديدة من معظم علماء المسلمين لكونها من قبيل البدع المنهي عنها؛ إذ إن الفلسفة تقوم على البحث العقلي عن الحكمة المتحرر من كل قيد، والحق في خوض كل مسألة، والحرية في التعبير عن الرأي مهما خالف الثوابت من الدين والراسخ من التقاليد. إن حال الفلاسفة في سعيهم الدؤوب وراء الحكمة أشبه بمن يوقد سراجاً في الشمس؛ لأنهم نبذوا وراء ظهورهم الهدي القرآني والتوجيه النبوي، والذي لو أنهم اكتفوا به لوجدوا فيه ما يزيل حيرتهم ويجيب عن أسئلتهم. والناظر إلى حال المعتزلة والفلاسفة يجد أن الفريقين لا يرضيان بغير العقل سبيلاً إلى معرفة الحقائق والأحكام؛ إلا أن المعتزلة يضعون الإيمان بالله استنتاجاً، ثم يلتمسون البراهين الفلسفية لتأكيد عقيدتهم، وأما الفلاسفة فلا يشترطون على أنفسهم عقيدة، بل يسرّحون عقولهم في الكون الوسيع بحثاً عن علة الوجود[2].

يقول القاضي علي بن أبي العز – شارح العقيدة الطحاوية –: إن من عَلِمَ حقيقة الفلاسفة، علم أنهم لا يؤمنون بالله، ولا رسله، ولا كتبه، ولا ملائكته، ولا باليوم الآخر[3]. فمذهب الفلاسفة مبني على خمسة أصول، وهي على النحو التالي: أولاً: يعتقدون بأن الله سبحانه وتعالى موجود، لا حقيقة له ولا ماهية، وأنه لا يعلم الجزئيات بأعيانها ولكنه يعلمها إجمالاً. ثانياً: لا يؤمنون بكتبه؛ حيث إن الله عندهم لا يتكلم ولا يُكلم. ثالثاً: ينكرون وجود رسل اصطفاهم الله لعباده؛ فالقرآن فيض فاض من العقل الفعَّال على قلب بشر زكي النفس طاهر. رابعاً: لا يعتقدون بوجود ملائكة لها ذوات منفصلة، تصعد السماء وتنزل، وترى الرسل وتخاطبهم، بل هي عندهم أمور ذهنية لا وجود لها في الأعيان. خامساً: ينكرون اليوم الآخر بشدة، ويكذّبون انفطار السماء، وتكور الشمس والقمر، وينفون الجنة والنار، فهي كلها عندهم مجرد أمثال مضروبة لتفهيم العوام[4].

ويرى ابن الجوزي أن فلاسفة ملّة الإسلام قد فُتنوا بفلاسفة اليونان، فأخذوا يردّدون مقولاتهم دون تمحيص وتحقيق؛ لزعمهم أن أولئك الفلاسفة القدامى، كسقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وغيرهم، هم حكماء لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم، ولا يصدر منهم إلا أفعال وأقوال تدل على نهاية ذكائهم وكمال فطنتهم[5]، وتلك – كما ترى – عقدة نفسية ما يزال كثير من أبناء الإسلام يعانون منها إلى وقتنا الحاضر! ولقد جرَّ تصديق فلاسفة المسلمين، ومن سار وراءهم من الناس، لمقولات أصحابهم من فلاسفة اليونان إلى خلعهم ربقة الإسلام، وإهمالهم الصلوات، وملابستهم المحذورات، واستهانتهم بحدود الشرع،

(1) الفلسفة: مشتقة من كلمة يونانية، وهي فيلاسوفيا، وتفسيرها: محبة الحكمة، فلما عُرّبت قيل: فيلسوف، ثم أُشتقت الفلسفة منه، ومعنى الفلسفة: علم حقائق الأشياء، والعمل بما هو أصلح. الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف (ت 387هـ/997م)، **مفاتيح العلوم**، تحقيق: عثمان خليل (ليدن: مطبعة بريل، 1930م)، 83.

(2) بدوي، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي**، 46.

(3) ابن أبي العز، علي بن علي بن محمد (ت 792هـ/1390م)، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق: عبدالله عبدالمحسن التركي وشعيب الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1411هـ/1990م)، 2: 402.

(4) ابن أبي العز، **شرح العقيدة لطحاوية**، 2: 402 – 403.

(5) ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**، 48.

حتى صاروا بذلك أقبح الخلق حالاً؛ فاليهود والنصارى أعذر منهم لكونهم متمسكين بشرائعهم التي يجدونها في كتبهم، والمبتدعة أعذر منهم لأنهم يزعمون النظر في الأدلة، وهؤلاء لا سند لكفرهم إلا ظنهم بأن سقراط وأصحابه من الفلاسفة كانوا حكماء[1].

المبحث الثالث: جهود علماء خراسان في تحصين الأمن الفكري للمجتمع خلال العصر السلجوقي:

إن من أوجب واجبات العلماء حماية المجتمع من الانزلاق في مهاوي الانحرافات العقدية، وتطهيره مما لحق به من أدران البدع والضلالات؛ فالعلماء هم ورثة الأنبياء، وقادة الفكر، والنجوم التي يهتدي بها الناس حين تدلهم الخطوب وتشدد الكروب، وهم صمّام الأمان للمجتمع متى ما نهضوا بأدوارهم المناطة بهم. ومع أن إقليم خراسان كان موئلاً لأصحاب الفرق المذهبية والتيارات الفكرية، فإنه قد خرج من رحم تلك البلاد علماء أفذاذ حملوا راية المواجهة؛ غيرة على هذا الدين وحمية له، وانبروا للدفاع عن السنّة، وتصدوا للبدع وأصحابها في صبر وشجاعة يُحمدون عليها.

تعددت مناهج العلماء في مواجهتهم وتصديهم للمبتدعة الذين جانبوا سبيل الهدى ونهج التقى وأسهموا في تصدع المجتمع فكرياً. فمنهم من تصدى للمبتدعة بسلاح الكلمة فدعاهم إلى الجلوس للمناظرة، أو صنّف الكتب في الرد عليهم، ومنهم من بنى المدارس لتخريج أفواج من العلماء ليعملوا على نشر السنّة وطي بساط البدعة، ومنهم من احتكم إلى السيف في التعامل معهم وشنَّ الغارة عليهم، ومنهم أيضاً من دعا الخلق إلى هجرهم ومنابذتهم واحتقارهم وعدم التلقي عنهم، وهي كلها وسائل سنلقي عليها بعض الضوء فيما يلي من السطور.

1. مناظرة أهل الأهواء والبدع:

لجأ بعض علماء خراسان إلى سلاح المناظرة، والمقصود بها محاورة في الكلام بين شخصين مختلفين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق[2]. ومما يحسن التنبيه إليه أن أكثر السلف كانوا ممن يكرهون مخاصمة أو مناظرة أهل البدع وينهون عنها، والآثار في ذلك بالمئات، فمنها قول بعضهم: "لا تجالسوا أهل القدر ولا تخاصموهم؛ فإنهم يضربون القرآن بعضه ببعض[3]"، وقول أحدهم: " لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم؛ فإني لا آمن من أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبّسوا عليكم ما كنتم تعرفون[4]"، وكتب رجل إلى ابن حنبل يستأذنه في أن يحضر مع أهل الكلام فيناظرهم ويحتج عليهم، فنهاه عن ذلك[5]. ومع ذلك فقد أجاز عدد من العلماء مناظرة أهل الأهواء والبدع، مثل: ابن عبد البر الأندلسي (ت 463هـ/1070م) الذي أفرد باباً في كتابه "جامع بيان العلم وفضله" جمع فيه من القرآن والسنّة وآثار من السلف ما يجيز مناظرة أهل البدع ومحاججتهم؛ فذكر أن الله عز وجل في كتابه جادل الكفار، وأن الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم –

(1) ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**، 49.

(2) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، **آداب البحث والمناظرة**، تحقيق: سعود عبد العزيز العريفي (مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، 1426هـ)، 2: 139.

(3) ابن بطة، أبو عبد الله عبيدالله بن محمد العكبري الحنبلي (ت 387هـ/997م)، **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**، تحقيق: رضا نعسان معيطي، ط 2 (الرياض: دار الراية، 1415هـ/1994م)، 2: 466

(4) ابن بطة، **الإبانة**، 2: 518.

(5) ابن بطة، **الإبانة**، 2: 472.

ناظروا أقوامهم، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم جادل أهل الكتاب وباهلهم، وأن الصحابة الكرام تجادلوا يوم السقيفة وتدافعوا، وتناظروا مرة أخرى في أهل الردة، وناظر علي بن أبي طالب الخوارج حتى انصرفوا، ثم ناظرهم حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن العباس (ت 68هـ/687م) فآب أكثرهم إلى الحق، وغير ذلك كثير[1].

هذا؛ وكان لعلماء خراسان في العصر السلجوقي جهود محمودة في مناظرة أهل الأهواء والبدع والرد عليهم في محاولة جادة منهم لتسييج مجتمع خراسان فكرياً. لذا؛ فإننا نجد عند أبي سعد السمعاني (ت 562هـ/1166م)، وحتى عند غيره من أصحاب التراجم، أنهم إذا أثنوا على أحد أهل العلم وصفوه بأنه كان: "مناظراً[2]"، أو "مناظراً مبرزاً[3]"، أو "مناظراً فحلاً[4]"، أو "من فحول المناظرين[5]"، وشيء من هذا المعنى، وهذا يدل على تقبلهم للمناظرات وتقديرهم للمناظرين، وبخاصة إذا كان الغاية منها إحياء الحق وإماتة الباطل. فقد حصل أن ناظر أبو المعالي عبدالملك الجويني فيلسوفاً في مسألة خلق القرآن، فقذف بالحق على باطله، ودمغه دمغاً حتى اعترف الموافق والمخالف إلى أبي المعالي بالغلبة[6]. ولقد وصف السبكي براعة الإمام عبدالملك الجويني في مناظرة الخصوم فقال: "وإذا ناظر قعد الأسد، فلا يستطيع أن يقوم، وقام الحق بحيث يحضر أندية الدين، وسهيل قد نبذ بالعراء كأنه مذموم، وإذا قصد رباع المبتدعة هدَّ شبهها ببراهين قائمة على عمد...[7]".

واستدعى السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان (465 – 485هـ/1072 – 1092م)[8] الإمام أبا حامد الغزالي لمناظرة الشيعة الإسماعيلية من أتباع الحسن بن الصباح، فناظرهم وردَّ شبهاتهم[9].

---

(1) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبدالله النمري القرطبي (ت 463هـ/1070م)، **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري (الدمام: دار ابن الجوزي، 1414ه/1994م)، 953 - 974

(2) السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت 562هـ/1166م)، **التحبير في المعجم الكبير**، تحقيق: منيرة ناجي سالم (بغداد: رئاسة ديوان الأوقاف، 1975م)، ترجمة رقم (93)، 1: 172.

(3) السمعاني، **التحبير**، ترجمة رقم (19)، 1: 92.

(4) السمعاني، **التحبير**، ترجمة رقم (28)، 1: 104.

(5) السمعاني، **التحبير**، ترجمة رقم (405)، 1: 442.

(6) السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ترجمة رقم (475)، 5: 174.

(7) السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ترجمة رقم (475)، 5: 167.

(8) معز الدين جلال الدولة ملكشاه: السلطان الكبير أبو الفتح، تولى الملك سنة 465هـ/1072م بعد مقتل أبيه ألب أرسلان وبعهد منه، خرج عليه أحد أعمامه فهزمه ملكشاه وقتله وصفى له الملك. واتسعت مملكته جداً، فبلغت ما بين كاشغر إلى بيت المقدس طولاً، ومن بلاد الجزيرة إلى القسطنطينية عرضاً. كان مُغْرى بالعمائر؛ فحفر الأنهار، وعمّرَ الأسوار والقناطر، وأسقط المكوس والضرائب، وبنى جامعاً ببغداد، وصنع بطريق مكة مصانع للماء. توفي ملكشاه سنة 485هـ/1092م وكان له من العمر سبع وثلاثون سنة. انظر: الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ترجمة رقم (165)، 10: 552 – 554؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ترجمة رقم (8)، 26: 26 – 30.

(9) بهجت، منى محمد بدر، **أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر** (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 2002م)،1: 136.

2. تأليف الكتب في الرد على أهل الأهواء والبدع:

عكف مجموعة من العلماء على تصنيف الكتب في الرد عليهم ودحض شبهاتهم؛ خدمة لدينهم، وإرضاءً لربهم، ونصرة لكتابهم، وحفظاً لسنّة نبيهم، ومن أمثلة أولئك الذين اشتهروا بالرد على المبتدعة بالكلمة الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيري الذي هاله ما آل إليه التصوف من فساد العقيدة وتشوه الطريقة، فوضع رسالته الشهيرة "الرسالة القشيرية"؛ لتقويم اعوجاج التصوف وإعادة ربطه بالشريعة[1]. يقول القشيري شاكياً ما آل إليه حال التصوف والمتصوفة في زمانه: "وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالشريعة أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة، والنسوان، وأصحاب السلطان[2]". وألّفَ إمام الحرمين عبدالملك الجويني (ت 478هـ/1085م)[3] كتباً في الدفاع عن عقيدة أهل السنّة والجماعة، ومناهضة أصحاب المقالات والمذاهب من المخالفين، نذكر منها مثلاً لا حصراً: "لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنّة والجماعة"، و"الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد"، و"الشامل في أصول الدين"[4]. وكان الجويني قد بالغ في أول أمره في علم الكلام، وركب بحره الخضم، وغاص فيه، ثم ندم على ذلك، فكان يقول: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام[5]". وأثنى الإمام الذهبي على ناصر السنّة وقامع البدعة شيخ الإسلام أبي إسماعيل عبدالله بن محمد الأنصاري (ت 481هـ/1089م)[6] ووصفه بأنه كان قذى في أعين المتكلمين وسيفاً مسلولاً عليهم، حتى إنه ألّف فيهم كتاباً سمّاه: "ذم الكلام"[7]. قال أبو إسماعيل الأنصاري: "عُرضت على السيف

---

(1) بدوي، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي**، 57.

(2) القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت 465هـ/1072م)، **الرسالة القشيرية**، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف (القاهرة: مطابع مؤسسة دار الشعب، 1409هـ/1989م)، 19.

(3) عبد الملك الجويني: أبو المعالي، وإمام الحرمين، فخر الإسلام، وإمام الأئمة على الإطلاق، وشهرته تغني عن ذكره. من أهل نيسابور، بُنيت له مدرسة النظامية بنيسابور، وأُقعد للتدريس فيها، وبقي على ذلك قريباً من ثلاثين سنة، غير مُزاحم ولا مُدافع، مُسلم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس، ومجلس التذكير يوم الجمعة، وكان يحضر دروسه الأكابر والجمع العظيم من الطلبة. له تصانيف سارت بها الركبان، مثل "غياث الأمم"، و"الشامل"، وغيرهما كثير. توفي الجويني سنة 478هـ/1085م. انظر مثلاً: السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ترجمة رقم (475)، 5: 165 وما بعدها؛ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت 774هـ/1373م)، **طبقات الشافعية**، تحقيق: عبدالحفيظ منصور (بيروت: دار المدار الإسلامي، 2004م)، ترجمة رقم (399)، 1: 446 – 450.

(4) الزحيلي، محمد، **الإمام الجويني إمام الحرمين (419 – 478هـ)**، ط 2 (دمشق: دار القلم، 1412هـ/1992م)، 97، 99، 103.

(5) الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1348م)، **سير أعلام النبلاء**، خرّج أحاديثه وقدّم له واعتنى به: محمد أيمن الشبراوي (القاهرة: دار الحديث، 1427هـ/2006م)، ترجمة رقم (4334)، 14: 19.

(6) أبو إسماعيل عبدالله بن محمد الأنصاري: هروي، من ولد أبي أيوب زيد بن خالد الأنصاري رضي الله عنه. كان على مذهب الحنابلة، مصمّماً عليه، صليباً فيه، مبغضاً للمتكلمة. ومن أشهر أبناء فكره وبنات قلمه المصنّفات التالية: كتاب "ذم الكلام"، و"الفاروق" في الصفات، و"الأربعين حديثاً"، و"مناقب أحمد بن حنبل"، وله في التصوف "منازل السائرين". وكان لأبي إسماعيل من الشدة على أهل البدع، والقوة في نصرة السنّة، ما شاع وذاع، ووقع عليه الإجماع. توفي سنة 481هـ/1089م بهراة، عن أربع وثمانين عاماً. انظر ترجمته في: الذهبي، **أعلام النبلاء**، ترجمة رقم (4354)، 14: 36 – 44؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ترجمة رقم (6349)، 17: 307.

(7) الذهبي، **أعلام النبلاء**، ترجمة رقم (4354)، 14: 39.

خمس مرات، لا يقال لي: ارجع عن مذهبك، لكن يقال لي: اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت[1]". ووُصف الإمام العلاّمة أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني (ت 489هـ/1096م)[2] بأنه كان شوكاً في أعين المخالفين، وحجة لأهل السنّة؛ لأنه وضع أكثر من كتاب في الذود عن السنّة والرد على المبتدعة، مثل: كتاب "الانتصار لأهل الحديث"، وكتاب "المنهاج لأهل السنّة"[3].

وتعد كتب حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي في الرد على المخالفين هي الأشهر على الإطلاق؛ فالغزالي كان إلباً على الفرقة الباطنية، وعبّرَ عن مخالفته لهم بأكثر من كتاب أماط فيه اللثام عن فساد عقيدتهم، وضلال منهجهم، وخبث مخططهم، وانسلاخهم من الإسلام، مثل: كتابيه "المنقذ من الظلال"، و"فضائح الباطنية"، وغيرهما[4]. ومما يُحمد للغزالي أنه انبرى للباطنية بفكره وقلمه غير عابئ بما قد يحصل له في وقت استفحل فيه شرهم، وطالت فيه أيديهم بالقتل كوكبة من الحكام والوزراء والقادة والعلماء. وبالمثل، فقد رمى الإمام الغزالي الفلسفة وأصحابها بسهام كنانته، وهاجمها بسلاحها بعد أن تظلع منها وأحاط بها وسبر أغوارها، كما في كتابيه المشهورين: "تهافت الفلاسفة"، و"مقاصد الفلاسفة"؛ وهذا ما تسبّب بإضعاف الفلسفة وانكفائها[5]. يقول الغزالي في مقدمة كتاب "التهافت": "فلما رأيت هذا العرق من الحماقة نابضا على هؤلاء الأغبياء، انتدبت لتحرير هذا الكتاب؛ رداً على الفلاسفة القدماء، مبيناً تهافت عقيدتهم، وتناقض كلمتهم، في ما يتعلق بالإلهيات، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته، التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء، وعبرة عند الأذكياء ...[6]". وكان جهد الإمام الغزالي محل ثناء تاج الدين السبكي في طبقاته؛ إذ قال: "جاء والناس إلى ردّ فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بجلاد مقاله، ويحمي حوزة الدين... حتى أصبح الدين وثيق العرى، وانكشفت غياهب الشبهات...[7]". ومما ينبغي ذكره، أن الإمام الغزالي لم يشن حربه على كل أنواع الفلسفة، وإنما سلّط نقده على ما يُعرف عندهم بالفلسفة الإلهية، والتي لا يجحد أصحابها الدين صراحة، ولكنهم يناقضون عقائده وشرائعه مناقضة بينة.

(1) الذهبي، **أعلام النبلاء**، ترجمة رقم (4354)، 14: 39.

(2) أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني: الإمام العلّامة، مفتي خراسان، شيخ الشافعية، التميمي المروزي، الحنفي كان ثم الشافعي، شيخ خراسان على الإطلاق. من بيت علم وفضل، تفقه بأبيه، وصار من فحول أهل النظر، وظهر له القبول عند الخاص والعام، وكان بحراً في الوعظ، وله تصانيف لا تُقوّم بثمن في التفسير والحديث والأصول والفقه، وأشهر ما ألفه: "القواطع"، و"الاصطلام"، و"البرهان"، و"الانتصار لأهل الحديث"، والقَدَر". انظر ترجمته في: الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ترجمة رقم (330)، 10: 640 – 644.

(3) الذهبي، **أعلام النبلاء**، ترجمة رقم (4485)، 14: 156.

(4) بدوي، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي**، 198.

(5) بدوي، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي**، 52.

(6) الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت 505هـ/1111م)، **تهافت الفلاسفة**، تحقيق: سليمان دنيا، ط 4 (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، 75.

(7) السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ترجمة رقم (694)، 6: 193.

3. المدارس النظامية ودورها في مواجهة أهل الأهواء والبدع:

أمر الوزير العالم نظام الملك الطوسي ببناء مدارس في خمس من كبريات مدن خراسان، وهي: نيسابور[1]، ومرو[2]، وهراة[3]، وبلخ[4]، وطوس[5]، إضافة إلى ما أمر به من مدارس غيرها في عدد من مدن الإسلام الأُخر، وهي المدارس التي

(1) نيسابور: بفتح النون، وسكون الياء، وفتح السين، وضم الباء: ومن أسمائها: نَشَاوُور، أو أبرشهر، أو إيرانشهر. تقع نيسابور في الجزء الغربي من إقليم خراسان، ولها حدود واسعة ورساتيق عامرة، وكور كثيرة. وكانت دار الإمارة بخراسان إما في مرو أو في بلخ، فلما قامت الدولة الطاهرية نقلت العاصمة إلى نيسابور، فعمرت وكبرت وعظمت أموالها عند قطونهم بها. وليس بخراسان مدينة أشد عمارة، وأدوم تجارة، وأكثر سابلة، وأعظم قافلة من نيسابور، ويرتفع منها من أصناف ثياب القطن والإبرسيم ما يُنقل إلى أكثر بلدان الإسلام وبعض بلاد الشرك لكثرته وجودته ولإيثار الملوك والرؤساء لكسوته. انظر مثلاً: ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت 367هـ/977م)، **صورة الأرض** (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1992م)، 262 – 363؛ المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت 380هـ/990م)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط 3 (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1411هـ/1991م)، 314 – 316؛ ياقوت، **معجم البلدان**، 5: 382 – 384.

(2) مرو: بفتح الميم، وسكون الراء: ويقال لها مرو الشاهجان، أو مرو العظمى، وهي أشهر مدن خراسان وقصبتها. ويقال لمن ينتسب إلى مرو: مروزي على غير قياس. ومرو الشاهجان هذه غير مرو الروذ أو ما يقال لها أحياناً مرو الصغرى. وفي مرو قُتل يزدجرد بن شهريار – آخر أكاسرة الفرس - على يد طحان أعجمي في عهد الخليفة عثمان بن عفان. ومرو هي مقر معظم ولاة خراسان. والمدينة طيبة، معتدلة الهواء، حسنة الثرى، كثيرة الخيرات، وافرة الغلات، كثيرة الأعناب والحبوب والحمام، وأسواقها من أنظف أسواق الأمصار، ومن صحة تربة مرو واعتدال هوائهم أن بطيخهم يُقدد ويُحمل إلى معظم البلدان. انظر مثلاً: المقدسي، **أحسن التقاسيم**، 298 – 299؛ ياقوت، **معجم البلدان**، 5: 132 – 136؛ الحميري، **الروض المعطار**، 532 – 534.

(3) هراة: بفتح الهاء والراء: والنسبة إليها هروي. وتقع هراة في الجزء الجنوبي من إقليم خراسان، وأما اليوم فهي جزء من أفغانستان. وهراة مدينة فيها بساتين كثيرة، ومياه غزيرة، وخيرات عظيمة، وهي من أكثر بلاد خراسان عمارة وأحسنه وجوه أهل. ويلتف بهراة ربضها من كل جانب، وبها نهر جار على باب المدينة وعليه قنطرة، وعلى أبوابها مياه جارية وبساتين. وبناء المدينة من الطين، وهي مقدار نصف فرسخ في مثله. والمسجد الجامع في المدينة والأسواق دائرة به، وهذا المسجد كبير الفناء حسن البناء، وليس بخراسان كلها وغيرها من البلاد المصاقبة لها مسجد أعمر بالناس على دوام الأيام من مسجد هراة. انظر مثلاً: الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت 346هـ/957م)، **مسالك الممالك** (ليدن: مطبعة بريل، 1927م)، 365؛ ابن حوقل، **صورة الأرض**، 316 ياقوت، **معجم البلدان**، 5: 456 – 457؛ الحميري، **الروض المعطار**، 594.

(4) بلخ: بفتح أوله، وسكون ثانيه: تقع بلخ في الجزء الشمالي الشرقي من إقليم خراسان، وتبعد المدينة من نهر جيحون عشرة فراسخ، ويقال لنهر جيحون: نهر بلخ، وهي في بساط من الأرض، وبينها وبين أقرب الجبال إليها نحو أربعة فراسخ. وبلخ من أجلّ مدن خراسان وأذكرها وأكثرها خيراً وأوسعها غلة، تُحمل غلتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم، ومنها يرتفع الصابون والسمسم والأرز والجوز واللوز والزبيب والعنجد والسمن وعسل الشمسي من العنب والتين ولب الرمان وغيرها كثير من السلع. انظر: المقدسي، **أحسن التقاسيم**، 301 – 302؛ ياقوت، **معجم البلدان**، 1: 568 – 569؛ الحميري، **الروض المعطار**، 96.

(5) طوس: مدينة على مرحلتين من نيسابور، وطوس العظمى يقال لها نوقان. وطوس مدينة كبيرة حسنة المباني، كثيرة الأسواق شاملة الأرزاق. وبها قبر الخليفة هارون الرشيد (170 - 193هـ/786 – 809م) وقبر ثامن أئمة الشيعة الاثني عشرية الرضا علي بن موسى الكاظم (ت 203هـ/818م). انظر: الحميري، **الروض المعطار**، 398.

اشتهرت باسم النظاميات؛ نسبة إلى الوزير نفسه[1]. ولقد وقف الوزير على نظامياته أوقافاً عظيمةً من أملاك وضياع وأسواق للصرف عليها، وعلى مدرسيها والطلبة المنتظمين بها ما يصلح معاشهم وسكناهم ومتطلباتهم؛ فلا ينشغلون إلا بالعلم وتحصيله[2].

ولم يكتفِ الوزير ببناء المدارس في كبريات المدن، بل نشر مدارسه في عدد من القرى الصغيرة والمدن النائية. يقول ابن الأثير عن مدارس الوزير نظام الملك: "... لم يخل بلد من شيء منها، حتى جزيرة ابن عمر[3] – التي هي في زاوية من الأرض لا يُؤبه لها – بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة، وهي الآن تُعرف بمدرسة رضى الدين[4]". وبنى نظام الملك مدرسة في مدينة ظاخر[5]، ورتّب فيها مدرسين وفقهاء، وشرط لكل واحد منهم في كل شهر رأس غنم وقدراً من السلت، أي الحبّ أو الحنطة يتقوّت بها[6].

وفيما يتعلق بالمواد التي كانت تُدرس في النظاميات، فإنها لم تخرج في مجملها عن العلوم الشرعية بمختلف فروعها من علم القراءات والتفسير والحديث والفقه، أو علوم اللغة العربية من النحو والأدب[7]. والنظاميات هي وقف على أصحاب الشافعي دون بقية المذاهب المختلفة؛ ولهذا كان يُشترط في المدرسين والوعاظ ومتولي الكتب أن يكونوا كلهم شافعية المذهب أشعرية الاعتقاد[8].

وتتلخص الأهداف المرجوة من بناء تلك المدارس في أماكن متفرقة من البلاد، والإنفاق عليها بسخاء بالغ في ثلاث نقاط: أولها: وأهمها ترسيخ دعائم المذهب السنّي، ونشر راياته للتضييق على الفكر الشيعي الباطني، وكشف تلبيسه على العوام. وثانيها: تخريج طائفة من معلمي أهل السنّة لديهم القدرة على الدفاع عن العقيدة القويمة، وتوعية الناس بأصول دينهم، وبث تعاليمه في ربوع بلاد الإسلام. وثالثها: تكوين فئة من الموظفين السنّيين القادرين على إدارة مؤسسات الدولة ودواوينها، وشغل المناصب القضائية والإدارية[9].

---

(1) السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ترجمة رقم (383)، 4: 313؛ محبوبة، عبدالهادي محمد، **نظام الملك** (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1419هـ/1999م)، 366 وما بعدها.

(2) ابن الجوزي، **المنتظم**، 16: 117.

(3) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات، والماء يحيط بها من جميع الجهات. ويقال إن الذي عمّرها هو الحسن بن عمر بن خطّاب التغلبي. ياقوت، **معجم البلدان**، 2: 160 – 161.

(4) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت 630هـ/1233م)، **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات (القاهرة – بغداد: دار الكتب الحديثة – مكتبة المتنبي، 1383هـ/1963م)، 9.

(5) مدينة ظاخر: مدينة كبيرة آهلة على ست مراحل من جنزة، وهي قصبة بلاد لكزان، والبرد بها شديد جداً. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت 682هـ/1283م)، **آثار البلاد وأخبار العباد** (بيروت: دار صادر، د. ت)، 602.

(6) القزويني، **آثار البلاد**، 602.

(7) تازي، عائشة، "الجهود العلمية للوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي خلال القرن 5هـ/11م"، **المجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية**، جامعة حسيبة بن بو علي بالشلف، ع 19 (2018م): 69.

(8) بدوي، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السّني**، 183.

(9) بدوي، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي**، 179.

لقد رأى الوزير العالم – بثاقب نظره وحصافة رأيه – أن الاستغناء بالقوة العسكرية في صد الفكر الغالي الباطني لن يؤتيَ أكله؛ إلا إذا رافق تلك المقاومة العسكرية مقاومة فكرية ممنهجة؛ حتى تقف سداً منيعاً يحول دون تمدد هذا الفكر المنحرف، الذي يروم إفساد العقيدة الإسلامية وطرح التكاليف الشرعية. وبالفعل، فقد أسهمت النظاميات في النهوض برسالتها وتحقيق غايتها؛ وذلك بفضل ما تهيأ لها من تخطيط ذكي، وإنفاق سخي، وتوسع جغرافي، وكادر علمي. ففي غضون أعوام قليلة، تمكنت المدارس النظامية من تخريج أفواج عظيمة من الطلاب الذين أخذوا ينتشرون في الآفاق شرقاً وغرباً؛ كي يقوموا بتأصيل الفقه الشافعي، وتدريس الحديث الشريف، وإرساء قواعد الدين الإسلامي المستمدة من كتاب الله وسنّة نبيه، أو يتصدوا للقضاء، أو يجلسوا للفتيا، أو يشغلوا المناصب الإدارية المهمة في دواوين الدولة. ولذا؛ فإننا نجد أبا إسحاق الشيرازي (ت 476هـ/1083م)[1] يقول: "خرجت إلى خراسان، فما دخلت قرية ولا بلدة، إلا وكان قاضيها، أو مفتيها، أو خطيبها تلميذي، أو من أصحابي[2]". إن هذا النص – على قصره – يشير بوضوح إلى تحقيق الأهداف العلمية التي رُسمت للمدارس النظامية، ومدى نجاح خطة الوزير العالم نظام الملك الطوسي في نشر السنّة الصحيحة وحماية المجتمع من ضلالات أهل الأهواء والبدع وانحرافاتهم.

4. قتال أهل الأهواء والبدع:

هناك من دعا إلى قتال أهل البدع والأهواء، وحرّضَ على استئصال شأفتها، بعد أن ظهر منها ما ظهر من الشر العظيم والفساد الكبير؛ فالوزير العالم السلجوقي نظام الملك الطوسي كان بصيراً بأهل الفكر الباطني، سابراً لغورهم، عالماً بخطرهم على استقرار الدولة وسلامة المجتمع، فحذّر في كتابه "سياست نامة" السلطان ملكشاه من السكوت عنهم قائلاً: "وليس ثمة فرقة أكثر شؤماً وتخريباً وسوءاً من هؤلاء القوم؛ لأنهم يبيّتون الشر لهذه المملكة من وراء حجاب، ويسعون إلى إفساد الدين. كلهم آذان صاغية تنتظر نداء القيام على الدولة، وأعين ساهرة تترقب إشارة الخروج عليها[3]". ولم يخفِ الوزير شدة انزعاجه من تغلغل هؤلاء القوم في أجهزة الدولة وتفريخهم في مفاصلها، فقال في سياق كلام طويل لا سبيل لتفصيله: "لكن الأمور وصلت الآن إلى حد انبثوا في البلاط والديوان بكثرة، حتى إنه ليجري وراء كل تركي مائتان منهم. لقد تدبّروا أمرهم بينهم على ألا يسمحوا لأي خراساني [سنّي المذهب] أن تطأ قدماه القصر والديوان، أو يتسنى له الحصول على لقمة العيش[4]". ولعلمه بمآربهم الخبيثة، وما في قلوبهم من غلّ عظيم، فقد دعا نظام الملك إلى بذل السيف فيهم وتخليص المسلمين من شرورهم، فقال: "... إنه ليس ثمة فرض أولى على أي ملك يظهر هؤلاء على عهده من محوهم من على وجه المعمورة،

(1) أبو إسحاق الشيرازي: إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي الشيرازي. كان واحد عصره علماً وزهداً وعبادة وسخاء. صنّف جملة من الكتب، مثل: "التنبيه"، و"المهذب"، و"اللمع"، و"المعونة"، وغيرها، وكانت له اليد البيضاء في النظم. وكان أبو إسحاق طلق الوجه، دائم البشر، حسن المحاورة، يحكي الحكايات الحسنة، وينشد الأشعار المليحة. وتوفي ببغداد سنة 476هـ/1083م، وصلّى عليه الخليفة المقتدي بأمر الله، وأكثر الشعراء مراثيه. انظر ترجمته في: ابن الجوزي، **المنتظم**، 16: 228 – 231؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 8: 289.

(2) السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ترجمة رقم (356)، 4: 216.

(3) الطوسي، قوام الدين أبو علي نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق (ت 485هـ/1092م)، **سياست نامه**، ترجمة: يوسف بكار، ط 3 (بيروت: دار المناهل، 1428هـ/2007م)، 227.

(4) الطوسي، **سياست نامه**، 196 – 197.

وتخليص مملكته من شرهم وتصفيتها منهم؛ ليهنأ في دولته وملكه ويعيش عيشة راضية..."[1]. وبالفعل، فقد سدَّ نظام الملك المسالك على زعيم الباطنية ابن الصبّاح، وضيّق على أصحابه سبل العيش، وكانت جنود السلاجقة في أيام وزارته تحيط بقلعتهم الشهيرة ألموت وتوشك أن تسقطها وتقضي على زعيمها، لولا قيامهم بقتله غيلة في رمضان سنة 485هـ/1092م[2].

وإلى جانب الوزير نظام الملك، فقد سلك أحد أولاده وهو قوام الدين أبو نصر أحمد (ت 544هـ/1155م)[3] سبيل أبيه في مناجزة الباطنية. ففي سنة 503هـ/1109م زحف قوام الدين أحمد إلى قلعتهم المذكورة، فأناخ عليها شهوراً، وأهلك دوابهم، وأتلف زروعهم، ثم انصرف عنهم بعد أن هجم البرد وكثر المطر[4].

5. هجر أهل الأهواء والبدع وعدم مجالستهم:

شدّدَ بعض العلماء والأئمة الفضلاء في خراسان على ضرورة إظهار البغض والعداوة للمبتدعة، ونهوا عن مجالستهم، ومجادلتهم، وموادتهم، والسلام عليهم، والركون إليهم. يقول سيف السنّة ودامغ البدعة الإمام أبو عثمان إسماعيل الصابوني (ت 490هـ/1097م)[5] في الموقف من المبتدعة بعد أن بيّنَ آياتهم وعلاماتهم: "... واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع، وإذلالهم، وإخزائهم، وإبعادهم، وإقصائهم، والتباعد منهم، ومن مصاحبتهم، ومعاشرتهم، والتقرب إلى الله عز وجل بمجانبتهم ومهاجرتهم[6]"؛ عملاً بقوله تعالى في محكم كتابه المجيد: {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره[7]}. وهذا ما جاء كذلك في كتاب "شرح السنّة" للإمام محيي السنّة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت 516هـ/1122م)[8]، الذي أفرد باباً عنّونه بـ "مجانبة أهل الأهواء"، ضمّنه بآيات قرآنية، وأحاديث شريفة،

---

(1) الطوسي، **سياست نامه**، 201.

(2) محبوبة، **نظام الملك**، 563.

(3) قوام الدين أبو نصر أحمد بن نظام الملك الطوسي: نزيل بغداد، وزِرَ للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، وآخر ما وزر للمسترشد بالله، وكان صدراً محتشماً، يملأ العين، روى عنه أبو سعد السمعاني، وغيره. توفي قوام الدين سنة 544هـ/1155م، ودُفن بداره. انظر ترجمته في: الذهبي، **أعلام النبلاء**، ترجمة رقم (4953)، 15: 62.

(4) إقبال، عباس، **الوزارة في عهد السلاجقة**، ترجمة وتعليق: أحمد كمال الدين حلمي (الكويت: جامعة الكويت، 1984م)، 238.

(5) أبو عثمان إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني: شيخ الإسلام، سيف السنّة ودامغ البدعة، الإمام، القدوة، الخطيب، المفسر، المحدث، المُذكّر. وعظ المسلمين في مجالس التذكير سبعين سنة دون أن يلحقه الوَنَى أو الكسل، وخطب وصلى في الجامع نحواً من عشرين سنة. حدّثَ بخراسان وطبرستان وجرجان وبلاد الشام والحجاز وغيرها من بلاد الإسلام. كان مقبولاً عند الموافق والمخالف معاً، مجمعاً على أنه عديم النظر. توفي أبو عثمان الصابوني سنة 449هـ/1057م. انظر ترجمته في: الصريفيني، أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الأزهر (ت 641هـ/1243م)، **المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور**، تحقيق: محمد أحمد عبدالعزيز (بيروت: دار الكتب العلمية، 1409هـ/1989م)، ترجمة رقم (307)، 131 – 136.

(6) الصابوني، أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد (449هـ/1057م)، **عقيدة السلف وأصحاب الحديث**، تحقيق: نصر بن عبد الرحمن الجديع، ط 2 (الرياض: دار العاصمة، 1419هـ/ 1998م)، 144 – 146، 315.

(7) سورة الأنعام: الآية (68)

(8) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي: شيخ الإسلام، محيي السنّة، الشافعي، وله القدم الراسخ في التفسير ، والباع المديد في الفقه، وله في التفسير والحديث والفقه مصنّفات جليلة تنافس العلماء في تحصيلها، وأشهرها: "شرح السنّة"، و"الجمع بين الصحيحين"، و"الأربعين حديثاً،

وأقوال وأخبار للسلف الصالح في هجرة أهل الأهواء والبدع. يقول البغوي في هذا: "... فعلى المرء المسلم إذا رأى رجلاً يتعاطى شيئاً من الأهواء والبدع معتقداً، أو يتهاون بشيء من السنن أن يهجره، ويتبرأ منه، ويتركه حياً وميتاً، فلا يسلم عليه إذا لقيه ولا يجيبه إذا ابتدأ إلى أن يترك بدعته، ويُراجع الحق[1]"".

الخاتمة:

في الختام، تلك خلاصة بأهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة المتواضعة:

- أظهرت الدراسة أن موضوع الأمن الفكري يُعد من الركائز المهمة في استقرار أي مجتمع إسلامي وسلامته.
- كشفت الدراسة عن أبرز التيارات الفكرية المنحرفة وأثرها في تصدع مجتمع خراسان فكرياً خلال العصر السلجوقي، وأهمها: الشيعة الباطنية، والمتصوفة المنحرفة، والمعتزلة، وغلاة الفلاسفة.
- أوضحت الدراسة أن جهود علماء خراسان خلال العصر السلجوقي في مواجهة أهل الأهواء والبدع والفكر المنحرف كانت متعددة وشملت: هجرهم وعدم مجالستهم، وتأليف الكتب في الرد عليهم وبيان تهافتهم، والدعوة إلى مناظرتهم، والاحتكام إلى السيف في محاربتهم، ونشر المدارس النظامية في عدد من مدن خراسان وغيرها من بلاد الإسلام، فأسهمت تلك الطرق في تحصين المجتمع الخراساني فكرياً، وكان لها أثر بالغ في استقراره وحمايته.

ثبت المصادر والمراجع:

المصادر:

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت 630هـ/1233م). **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية.** تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات. القاهرة – بغداد: دار الكتب الحديثة – مكتبة المتنبي، 1383هـ/1963م.
- ------. **الكامل في التاريخ.** حققه واعتنى به: عمر عبدالسلام تدمري. بيروت: دار الكتب العلمية، 2012م.
- الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت 346هـ/957م). **مسالك الممالك.** ليدن: مطبعة بريل، 1927م.
- ابن بطة، أبو عبدالله عبيدالله بن محمد العكبري الحنبلي (ت 387هـ/997م). **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة.** تحقيق: رضا نعسان معيطي. ط 2. الرياض: دار الراية، 1415هـ/1994م.
- البغدادي، أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر بن محمد (ت 429هـ/1037م). **الفرق بين الفرق.** دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشت. القاهرة: مكتبة ابن سينا، 1988م.

و"معالم التنزيل"، و"المصابيح". وكان البغوي سيداً إماماً، عالماً علّامة، زاهداً، قانعاً باليسير، متأدباً بأخلاق السلف. توفي بمرو الروذ سنة 516هـ/1122م. انظر ترجمته في: الذهبي، **أعلام النبلاء**، ترجمة رقم (4680)، 14: 328.

(1) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن الفراء (ت 516هـ/1122م)، **شرح السنّة**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، ط 2 (دمشق: المكتب الإسلامي، 1983م)، 1: 224.

- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن الفراء (ت 516هـ/1122م). **شرح السنّة.** تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش. ط 2. دمشق: المكتب الإسلامي، 1983م.
- البنداري، الفتح بن علي الأصفهاني (643هـ/1245م). **تاريخ دولة آل سلجوق.** القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، 1318هـ/1900م.
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحرّاني (ت 728هـ/1328م). **الاستقامة.** تحقيق: محمد رشاد سالم. ط 2. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، 1411هـ/1991م.
- ------. **درء تعارض العقل والنقل.** تحقيق: محمد رشاد سالم. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1411هـ/1991م.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ/1201م). **تلبيس إبليس.** تحقيق: محمد عبدالقادر الفاضلي. صيدا – بيروت: لمكتبة العصرية، 1435هـ/2014م.
- ------. **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.** تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا. ط 2. بيروت: دار الكتب العلمية، 1995م.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي (ت 626هـ/1229م). **معجم البلدان.** تحقيق: فريد الجندي. بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم (ت 900هـ/1495م). **الروض المعطار في خبر الأقطار.** تحقيق: إحسان عباس. بيروت: مكتبة لبنان، 1974م.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت 367هـ/977م). **صورة الأرض.** بيروت: دار مكتبة الحياة، 1992م.
- ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت 808هـ/1332م). **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.** اعتنى به وراجعه: درويش الجويدي. صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، 1434هـ/2013م.
- الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف (ت 387هـ/997م). **مفاتيح العلوم.** تحقيق: عثمان خليل. ليدن: مطبعة بريل، 1930م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (748هـ/1348م). **تاريخ الإسلام ومشاهير الوفيات والأعلام.** تحقيق: بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1424هـ/2003م.
- ------. **سير أعلام النبلاء.** خرّج أحاديثه وقدّم له واعتنى به: محمد أيمن الشبراوي. القاهرة: دار الحديث، 1427هـ/2006م.
- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبدالكافي (ت 771هـ/1370م). **طبقات الشافعية الكبرى.** تحقيق: عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د. ت.
- السمعاني، أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور (ت 562هـ/1166م). **التحبير في المعجم الكبير.** تحقيق: منيرة ناجي سالم. بغداد: رئاسة ديوان الأوقاف، 1975م.

- ------. **المنتخب من معجم شيوخ الإمام الحافظ أبي سعد السمعاني**. تحقيق: موفق عبدالله عبدالقادر. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1417هـ/1996م.
- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي (ت 790هـ/1388م). **الاعتصام**. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان. القاهرة: مكتبة التوحيد، 1425هـ.
- الشهرستاني، تاج الدين أبو الفتح محمد بن عبدالكريم (ت 548هـ/1153م). **الملل والنحل**. تحقيق: محمد عبدالقادر الفاضلي. صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، 1435هـ/2014م.
- الصابوني، أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد (449هـ/1057م). **عقيدة السلف وأصحاب الحديث**. تحقيق: نصر بن عبد الرحمن الجديع. ط 2. الرياض: دار العاصمة، 1419هـ/ 1998م.
- الصريفيني، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن الأزهر (ت 641هـ/1243م). **المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور**. تحقيق: محمد أحمد عبدالعزيز. بيروت: دار الكتب العلمية، 1409هـ/1989م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله (ت 764هـ/1363م). **الوافي بالوفيات**. تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ/2000م.
- ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا (ت 709هـ/1309م). **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**. بيروت: دار صادر، د. ت.
- الطوسي، قوام الدين أبو علي نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق (ت 485هـ/1092م). **سياست نامه**. ترجمة: يوسف بكار. ط 3. بيروت: دار المناهل، 1428هـ/2007م.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبدالله النمري القرطبي (ت 463هـ/1070م). **جامع بيان العلم وفضله**. تحقيق: أبو الأشبال الزهيري. الدمام: دار ابن الجوزي، 1414ه/1994م.
- ابن أبي العز، علي بن علي بن محمد (ت 792هـ/1390م). **شرح العقيدة الطحاوية**. تحقيق: عبدالله عبدالمحسن التركي وشعيب الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1411هـ/1990م.
- ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد العكري (ت 1089هـ/1678م). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. تحقيق: محمود الأرناؤوط. دمشق: دار ابن كثير، 1414هـ/1993ه.
- الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت 505هـ/1111م). **تهافت الفلاسفة**. تحقيق: سليمان دنيا. ط 4. القاهرة: دار المعارف، د. ت.
- ------. **المنقذ من الضلال**. تحقيق: محمود بيجو. ط 2. دمشق: دار التقوى، د.ت.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت 682هـ/1283م). **آثار البلاد وأخبار العباد**. بيروت: دار صادر، د. ت.
- القشيري، أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك (ت 465هـ/1072م). **الرسالة القشيرية**. تحقيق: عبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف. القاهرة: مطابع مؤسسة دار الشعب، 1409هـ/1989م.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت 774هـ/1373م). **طبقات الشافعية**. تحقيق: عبدالحفيظ منصور. بيروت: دار المدار الإسلامي، 2004م.

- المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت 380هـ/990م). **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.** ط 3. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1411هـ/1991م.

المراجع:

- إقبال، عباس. **تاريخ إيران بعد الإسلام: من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (205هـ/820م - 1343هـ/1925م).** ترجمة: محمد علاء الدين منصور. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1410هـ/1990م.
- ------. **الوزارة في عهد السلاجقة.** ترجمة وتعليق: أحمد كمال الدين حلمي. الكويت: جامعة الكويت، 1984م.
- بدوي، عبدالمجيد أبو الفتوح. **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد.** ط 2. المنصورة: دار الوفاء، 1408هـ/1988م.
- بهجت، منى محمد بدر. **أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر.** القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 2002م.
- تازي، عائشة. الجهود العلمية للوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي خلال القرن 5هـ/11م. **المجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية.** جامعة حسيبة بن بو علي بالشلف. ع. 19، 2018م.
- الجحني، علي فايز. رؤية للأمن الفكري وسبل مواجهة الفكر المنحرف. **المجلة العربية للدراسات الأمنية.** جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية. مج. 14. ع. 27. مايو، 1999م.
- جرمك، آمنة حامد. مفهوم الأمن الفكري ومعالمه وسماته في القرآن الكري. **مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية.** مج. 4. ع. 4. 15 ديسمبر، 2021م.
- الحسن، حمزة السر محمد. إرهاب طائفة الحشاشين الإسماعيلية. **مجلة العلوم والدراسات الإنسانية.** جامعة بنغازي. ع. 47. يناير 2018م.
- حسنين، عبدالنعيم محمد. **دولة السلاجقة.** القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1975م.
- رستم، سعد. **الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات.** ط 8. دمشق: دار الأوائل، 2010م.
- الزحيلي، محمد. **الإمام الجويني إمام الحرمين (419 – 478هـ).** ط 2. دمشق: دار القلم، 1412هـ/1992م.
- السديس، عبدالرحمن عبدالعزيز. **الأمن الفكري وأثر الشريعة الإسلامية في تعزيزه.** الرياض: مدار الوطن للنشر، 1438هـ/2016م.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. **آداب البحث والمناظرة.** تحقيق: سعود عبد العزيز العريفي. مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، 1426هـ.
- صادق، حسن. **جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات.** ط 2. القاهرة: مكتبة مدبولي، 2002م.
- ظهير، إحسان إلهي. **التصوف: المنشأ والمصادر.** لاهور: إدارة ترجمان السنّة، 1406هـ/1986م.

- ابن عجيبة، أحمد بن محمد الحسني (ت 1226هـ/1809م). **الفتوحات الإلهية**. تحقيق: عبدالرحمن حسن محمود. القاهرة: عالم الفكر، د. ت.
- عمو، سميرة. **آل. مُوت أو إيدلوجيا الإرهاب الفدائي.** ط 2. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1996م.
- محبوبة، عبدالهادي محمد. **نظام الملك.** القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1419هـ/1999م.
- نور، أمل محمد. **مفهوم الأمن الفكري في الإسلام وتطبيقاته التربوية**. رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، 1428ه.

Doi: doi.org/10.52133/ijrsp.v4.41.6